المبحث الأول

نشأة المدرسة الإسلامية ودورها في المجتمع

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهومها.

المطلب الثاني: نشأتها ومراحل تطورها.

المطلب الثالث: عوامل نشأتها وازدهارها.

المطلب الرابع: دورها في المجتمع.

المطلب الأول: مفهوم المدرسة الإسلامية

أولاً: المعنى اللغوي

المدرسة اسم مشتق من الفعل درس، ويأتي لازماً ومتعدياً، فتقول: درس الشيءُ والرسمُ يدرس دُروساً: عفا، ودرسته الريحُ درساً: محته[1]، وهذا المعنى ظاهر عند اللغويين جميعهم.

---

(١) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج٥، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٤٤.
وانظر: الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ج١٢، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ط، د.ت، ص٣٥٩.

ولكن المتأمل في أصل الفعل يجد أنه مرتبط بالتكرار والتذليل. كما جاء في تاج العروس: درسَتْه الريح درساً: محته إذا تكررت عليه فعفَّته. وأصل الدُّرسة والمدارسة: الرياضة والتعهد بالشيء[١]. ومنه: درس البعيرَ درسا أي راضه وذلّله، وهو الأصل في المعنى[٢]. وتقول على سبيل المجاز: درس الكتاب أي قرأه، وفي الأساس كرر قراءته، أو ذلّله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه، ودارسه: كأنه عانده حتى انقاد لحفظه[٣].

وقد وردت مادة (درس) في القرآن الكريم في ستة مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وقد قرئت هذه الآية بعدة قراءات شملت المعاني السابقة كلها، ومنها: دَرَسْتَ: أي قرأت كتب أهل الكتاب. ودارسْتَ: أي ذاكرتهم. ودُرِست: أي قرئت وتليت. ودَرُسَتْ: أي هذه أخبار عفت وامَّحت. ودَرَسَتْ: أي تقادمت. وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيء واحد إلى التليين والتذليل[٤]. وقد غلب الاستعمال في معنى القراءة والمذاكرة والحفظ. كما في الحديث الشريف: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم...)[٥] أي يتعهدونه بالقراءة لئلا ينسوه.

ومنه: المَدرس وهو موضع الدرس. ومنه: المدرسة وجمعها مدارس[٦]. ولا شك أن لفظ مدرسة من الاشتقاقات المستحدثة عند العرب، فهو مرتبط بتاريخ نشأة المدرسة وانتشارها في المجتمع الإسلامي.

---

(١) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، ج١٦، دار الأنوار، بيروت، ط١، د.ت، ص٦٤.

(٢) رضا، أحمد، معجم متن اللغة، ج٢، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م، ص٤٠٠.

(٣) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (مرجع سابق)، ج١٦، ص٦٥.

(٤) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، م١، ج٧، دار عالم الكتب، الرياض، د.ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٥٩.

(٥) رواه مسلم والترمذي وأبو داوود وأحمد عن أبي هريرة. انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ج٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٣٧٤، رقم الحديث: ٢٦٤٠.

(٦) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (مرجع سابق)، ج١٦ / ص٧٠.

ويرى بعض المفكرين المعاصرين أن كلمة مدرسة في الأصل مأخوذة من العبرية من كلمة (مِدراش) وعربت إلى (مدراس) وهو البيت الذي يدرس فيه اليهود التوراة، واستشهدوا بحديث اليهودي الذي زنى وفيه: (حتى أتى بيت المدراس)[١]، واستدلوا بما ذكره ابن الأثير (ت:٦٠٦هـ/١٢٠٧م) أن وزن مفعال غريب في المكان[٢].

ولو كان الأمر كذلك لرأينا استعمال العرب لهذه الكلمة في بيوت الدراسة عموماً. والنصوص تثبت أن العرب لم يستعملوا هذا اللفظ إلا لمدراس اليهود كما ورد في الحديث المذكور. وأوردت بعض المعاجم أن (المدراس) يطلق على البيت الذي يدرس فيه القرآن، وهذا غير مستعمل أيضاً. لذلك يبقى اللفظ محصوراً في مدراس اليهود.

واستدل آخرون على التشكيك بعربية كلمة مدرسة أن العرب استعملت الفعل درس بمعنى محا وعفا، وفي الأدب الجاهلي ما يؤيد هذا. أما استعماله بمعنى قرأ فدخيل من السريانية أو العبرية من الفعل (درش). إذ لا صلة بين المحو والقراءة.

ولو تأمل هؤلاء في المعاجم لأدركوا أن الرابط بين المعنيين ظاهر وهو التكرار، وهو الأساس في المعنى، كما أشرت سابقاً. ويؤكد هذا ما ذكره الزمخشري (ت:٥٣٨هـ/١١٤٣م): درسته الرياح: تكررت عليه فعفّته، ومن المجاز: درس الكتاب للحفظ: كرر قراءته[٣].

ثم إن دعوى التعريب لا تصح إلا بأدلة واضحة من التاريخ والاشتقاق، أو خروج

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنه قال: أتى نفر من يهود، فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف، فأتاهم في بيت المدراس، فقالوا: يا أبا القاسم: إن رجلا منّا زنى بامرأة، فاحكم بينهم، فوضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها، ثم قال: «بالتوراة»، فأتي بها، فنزع الوسادة من تحته، فوضع التوراة عليها، ثم قال: «آمنت بك وبمن أنزلك» ثم قال: «ائتوني بأعلمكم»، فأتي بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم.. انظر: أبو داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السيجستاني، كتاب السنن، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ج٣، ص١٠٦، رقم الحديث ٤٤٤٥.

(٢) ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، تحقيق: محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ص١١٣.

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، ج١، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، ١٣٤١هـ/١٩٢٣م، ص٢٦٨.

الكلمة عن الخصائص التي تمتاز بها الكلمات العربية. ولا غرابة أن يتوافق لفظ مدراس مع اشتقاقات مادة درس في المعنى، لأن العربية والعبرية والسريانية من اللغات السامية، أي أخوات من أصل واحد، والعربية أقدمها.

واستدل بعضهم على تلك الدعوى بأن القرآن الكريم أول من استعمل هذا الفعل بمعنى القراءة. وهذا الاستدلال مردود، بل هو حجة ظاهرة على عربية هذا اللفظ باتفاق العلماء، فمذهب الجمهور أنه ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب. لأنه إن لم تكن العرب تخاطبت به، ولا عرفته بلغة من لغاتها، استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً مبيناً، ولا يكون الرسول ﷺ مخاطباً لقومه بلسانهم[1].

ثم بعد هذا كله، وعلى أقل تقدير، فإنه لا يخفى على أحد أن الكلمة إذا أخذها العرب من غيرهم، وصاغوها على أوزان حروفهم، ودارت في أشداقهم، أنها صارت من لغتهم بالنقل والاقتباس.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

يقصد بالمدارس في تاريخ الإسلام: "تلك الدور المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم، وتدر عليهم فيها الأرزاق، ويتولى التدريس لهم وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء، يوسع عليهم في الرزق، ويختارون بحسب شروط الواقف، ممن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للقيام به، ويجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الإلهية والبشرية"[2].

والمدارس "تلك الأماكن التي أسست لنشر نوع خاص من المعرفة، تحت إشراف الدولة التي تنفق عليها الأموال، وتحبس لها الأوقاف، تراقب التعليم فيها. تعهد لفئة صالحة من الناس وهم المعلمون ليدرسوا المتعلمين ويثقفوهم، ويختارون حسب لوائح

(١) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، (مرجع سابق)، مج١، ج١، ص٧٧.
(٢) بدوي، أحمد أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، ص٣٠.

خاصة يضع الواقف فيها شروطه، وتقدم لهم الجرايات والأرزاق، ويجاز فيها المتعلمون بما تعلموا من ضروب المعارف النقلية والعقلية"[١].

ويمكن تعريف المدرسة في الإسلام بأنها "هي المسجد الجامع، الذي أقيمت في حرمه بيوت لسكنى فريق مختار من الفقهاء أو الطلاب، ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم، ووفرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة، وأجريت عليهم الجرايات"[٢].

ونستنتج من هذه التعريفات أن المدرسة منشأة تتكون من عناصر محددة متفاعلة، تشكل نظاما تعليميا متكاملا، وتمارس أدواراً ووظائف محددة في خدمة التعليم الإسلامي. وهذا يتفق مع تعريف المدرسة من الناحية الفنية باعتبارها "مكان لتدريس عدد معين من الطلاب على أيدي أساتذة مخصوصين مواد دراسية معينة ذات مستوى معين"[٣].

المطلب الثاني: نشأتها ومراحل تطورها

تعد نشأة المدارس الإسلامية نتيجة طبيعية لاهتمام المسلمين بالعلم. فحركة التعليم التي انطلقت من المساجد والكتاتيب سرعان ما تبلورت من خلال الحلقات والمجالس العلمية، ودور العلماء، وبيوت الحكمة، والتي بدورها شكلت النواة لتأسيس المدارس الأهلية بصورتها البسيطة. وصولاً إلى المدارس الرسمية التي كانت تشرف عليها الدولة، وانتهاء بالجامعات المتكاملة بكلياتها ومرافقها وملحقاتها، والتي أشبه ما تكون بالمدن الجامعية اليوم.

وفي الحقيقة لا يمكن للباحث أن يقف على زمن محدد لنشأة أول مدرسة أو تعيين مدرسة ما، فالمصادر التاريخية لم تشر إلى ذلك على وجه التحديد،[٤] ولكن

---

(١) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، دار بيروت المحروسة، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٤٨.

(٢) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢، دار المعارف، مصر، د.ط، ١٩٦٩م، ص١٩٢.

(٣) علي، سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٩٨٦م، ص٣٠٤.

(٤) ذكرت موسوعة الزاد للعلوم والتكنولوجيا أن تاريخ أول مدرسة في الإسلام يعود إلى أواخر القرن الثاني =

الثابت أن "المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين"[١].

وقد أثبتت النصوص أن بلاد خراسان وما وراء النهر كانت الأسبق إلى تأسيس المدارس، بالرغم مما شهدته الشام والعراق من نهضة علمية وحضارية خلال القرون الثلاثة الأولى، إذ لم يرد ذكر المدارس فيها في كتب مؤرخي تلك الحقبة. بينما تشير بعض الوثائق إلى مدارس في بخارى وأخرى في نيسابور شيدت في أواخر القرن الثالث الهجري.

"ويقال: إن عدد المدارس الجامعة ببخارى كان في عهد إسماعيل[٢] (ت:٢٩٥هـ/٩٠٧م) يزيد على نظائره في كل مدن آسيا"[٣]. ومن أبرزها: مدرسة الأمير إسماعيل التي بناها لاستقطاب العلماء والمتعلمين "حتى قدم إليه كثير منهم من أماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم في مدرسته، أو ليقضوا حياتهم في التأمل والبحث بدار كتبه التي حبس عليها الحبوس"[٤]. ومدرسة فارجك التي احترقت في شهر رجب من عام ٣٢٥هـ[٥]، وقبل عام ٣٤٨هـ بنيت مدرسة كولارتكين التي بناها

=

الهجري، وهي مدرسة الإمام الفقيه الحنفي أبي حفص البخاري (ت:٢١٧هـ/٨٣٢)، المعروفة بالمدرسة الحفصية. ولم تشر الموسوعة إلى مصدر هذه المعلومة. انظر: موسوعة الزاد للعلوم والتكنولوجيا، تعريب بهيج ملا حويش ج١١، شركة الزاد، مدريد، ١٩٩٥م، ص٣٢٥٢. ويرى ناجي معروف أن تاريخ المدرسة الحفصية يرجع إلى ما قبل ٣٦١هـ، وكان هناك مدارس قبلها. انظر: معروف، ناجي، مدارس قبل النظامية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، د.ط، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٢٦.

(١) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (المعروف بـ: الخطط المقريزية)، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، التاهرة، د.ط، د.ت، ص٣٦٣.

(٢) إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان، ثاني أمراء الدولة السامانية في ما وراء النهر، أقره المعتضد العباسي في ولايته سنة ٢٧٩هـ، ثم أضاف إليه خراسان، توفي في بخارى سنة ٢٩٥هـ. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، ط١١، ١٩٩٥م، ص٣٠٨.

(٣) فامبري، أرمينيوس، تاريخ بخارى، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، مراجعة: يحيى الخشاب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د.ط، د.ت، ص١٠٩.

(٤) المرجع نفسه، ص١٠٦.

(٥) النرشخي، محمد بن جعفر، تاريخ بخارى، تعريب عن الفارسية وتحقيق: أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، مصر، د.ط، ١٩٦٥م، ص٣٠.

الأمير قدر خان جبرئيل بن عمر بن طغرل خان[١]. ولم تتوافر المعلومات الكافية عن هذه المدارس.

وأما مدارس نيسابور فقد أحصي ما يزيد على ثلاث وثلاثين مدرسة[٢] أنشئت في القرنين الرابع والخامس الهجري، ومن أقدمها: مدرسة أبي العباس الكرخي (ت:٣٤٣هـ/٩٥٤م)[٣] في سكة الدهانين بنيسابور[٤]. ومدرسة حسان بن محمد القرشي[٥] (ت:٣٤٩هـ/٩٦٠م). ومدرسة ابن حبان التميمي[٦] (ت:٣٥٤هـ/٩٦٥م) الذي كانت "داره مدرسة لأصحابه أو مسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، ولهم جرايات يستنفقونها، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي سلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة"[٧].

وزعم بعض المؤرخين أن الوزير نظام الملك[٨] (ت:٤٨٥هـ/١٠٩٢م) "هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس"[١]. وقد رد السبكي[٢] (ت:٧٧١هـ/١٣٦٩م) على ذلك

---

(١) لم أعثر على ترجمة له في كتب التراجم والأعلام. انظر: المرجع نفسه، ص١٢٨.

(٢) معروف، ناجي، مدارس قبل النظامية، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٣) الكرخي، محمد بن علي بن أحمد، المعروف بأبي العباس، من الأدباء الزهاد والعلماء، كان إماماً في الفرائض، ت:٣٤٣هـ. انظر: القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، ص١٨٦

(٤) القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، (مرجع سابق)، ج٣، ص١٨٥.

(٥) حسان بن محمد القرشي الأموي، أبو الوليد النيسابوري، ولد سنة ٢٧٠هـ، قال عنه الحاكم: "كان إمام أهل الحديث بخراسان، وأزهد من رأيت من العلماء، وأكثرهم تقشفاً ولزوماً لمدرسته وبيته"، توفي بنيسابور سنة٣٤٩هـ. انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي، مصر، ط١، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، ص٢٢٦، برقم١٦٤.

(٦) محمد بن حبان البستي التميمي، أبو حاتم، الحافظ الجليل الإمام، صاحب التصانيف المشهورة: الثقات، والجرح والتعديل وغيرها، توفي سنة ٣٥٤هـ. انظر: المرجع نفسه، ج٣، ص١٣١، برقم١٢٤.

(٧) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج١، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٤٩٧.

(٨) هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب نظام الملك، العالم العادل، ولد سنة٤٠٨هـ، كان وزيراً عند السلطان السلجوقي ألب أرسلان ثم ابنه ملكشاه، وأقام على هذا عشرين سنة. توفي =

مستشهداً بمدارس نيسابور كالبيهقية والسعدية التي بنيت قبل أن يولد نظام الملك[٣]. ووافقه المقريزي[٤] (ت:٨٤٥هـ/١٣٦٥م) بقوله: "وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور"[٥].

وربما يرجع ذلك إلى الشهرة التي نالتها مدارس نظام الملك وسعة انتشارها فقد كانت "مدارسه في العالم مشهورة، ولم يخلُ بلد منها"[٦]. أو على اعتبار أنه أول من بنى المدارس في العراق، حيث افتتحت مدرسته في بغداد عام ٤٥٩هـ. وهذا الاعتبار فيه نظر، لأن مدرسة الإمام أبي حنيفة التي بناها شرف الملك أبو سعد المستوفي[٧] (ت:٤٩٤هـ/١١٠١م) افتتحت قبل نظامية بغداد بأشهر من العام نفسه[٨]. ويذكر

=

سنة٤٨٥هـ، انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٤، ص٣٠٩، برقم٣٨٣.

(١) انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، ١٩٧٧م، ص١٢٩.

(٢) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تاج الدين، المؤرخ، الباحث. ولد في القاهرة، سنة ٧٢٧هـ، وانتقل إلى دمشق، فسكنها، انتهى إليه قضاء في الشام، من تصانيفه: طبقات الشافعية الكبرى، ومعيد النعم ومبيد النقم. توفي سنة ٧٧١هـ. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج٤، ص١٨٤.

(٣) السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٤، ص٣١٤.

(٤) هو أحمد بن علي أبو العباس الحسيني تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة، ولد ونشأ ومات في القاهرة، (٧٦٦ - ٨٤٥هـ)، من تآليفه كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج١، ص ١٧٧.

(٥) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٦٣.

(٦) المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي، (المعروف بأبي شامة المقدسي)، الروضتين من أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٩٨.

(٧) هو محمد بن منصور الخوارزمي، الملقب شرف الملك، كان مستوفي ديوان المملكة الملكشاهية، توفي سنة ٤٩٤هـ. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، ج١٩، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص١٨٨، برقم١٠٩.

(٨) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج١٦، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص١٠١.

بعض المؤرخين أن أول مدرسة أنشئت في بغداد سنة ٣٨٣هـ[١] للشيخ ابن اللبان الفرضي (ت:٤٠٢هـ/١٠١٢م)[٢].

وينظر السبكي (ت:٧٧١هـ/١٣٦٩م) من زاوية أخرى فيقول: "وقد أدرت فكري وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبله معاليم للطلبة أو لا، والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم"[٣]، ووافقه المقريزي (ت:٨٤٥هـ/١٣٦٥م) على ذلك[٤]، وهذا أيضاً غير مسلَّم به فقد ثبت أن "الجرايات كانت مقررة للفقهاء قبل نظام الملك، وكانت الجرايات تجرى من أوقاف أرصدت وحبست على تلك المدارس"[٥].

والأظهر أن نعتبر مدارس نظام الملك "أول عمل رسمي قامت به الدولة الإسلامية لتنظيم الدراسة، وتهيئة مستلزماتها وحاجاتها، وتقديم الرواتب والنفقات للمعلمين والمتعلمين، وتبني تقاليد معينة تتعلق بأنظمة التدريس والإدارة، والمسكن، والمأكل، والمشرب"[٦].

ولعل هذا ما دفع كثيراً من المفكرين المتأخرين والمعاصرين إلى الأخذ بقول من قال: إن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس، مع إشارتهم لمدارس نيسابور قبل نظام الملك. فنظام الملك أول من أنشأ المدارس الرسمية في أمهات المدن الإسلامية، ونظم شؤونها. ويعد عمله بمثابة تأسيس مدن جامعية بكافة مرافقها وملاحقها، وكلياتها. بينما كانت المدارس من قبل أشبه بالمدارس الأهلية الخاصة التي يشرف عليها أصحابها فكراً وإدارة ونفقةً دون خضوعها لجهة رسمية أو حكومية. كما

---

(١) بخش، خودا، الحضارة الإسلامية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٧٢.

(٢) محمد بن عبد الله بن الحسن البصري، أبو الحسين، المعروف بابن اللبان الفرضي، كان إماماً في الفقه والفرائض، إليه انتهى علم الفرائض وصنف فيه كتباً. انظر: ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م. ج٥، ص١٤.

(٣) تاج الدين بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٤، ص٣١٤.

(٤) انظر: أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٦٣.

(٥) ناجي معروف، مدارس قبل النظامية، (مرجع سابق)، ص٩، وص١٨.

(٦) محمد منير سعد الدين، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص٥٠.

"ترجع أهمية عمل نظام الملك إلى كونه بداية عصر جديد من الازدهار المدرسي، إذ أصبح السلطان ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس"[١]. وأصبح هذا العمل تقليدا متبعا في كافة المدن الإسلامية في العصور التالية.

ومع ازدهار حركة بناء المدارس في العراق ظهرت في بلاد الشام أول مدرسة فقهية عام ٤٩١هـ، وهي المدرسة الصادرية[٢] في دمشق التي بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله[٣].

ثم توسعت حركة بناء المدارس في عهد نور الدين زنكي[٤] (ت:٥٦٩هـ/١١٧٤م) حيث أنشأ زهاء مئة مدرسة ومسجد في أنحاء بلاد الشام. ومن أشهرها مدرسة دار الحديث بدمشق التي بناها عام (٥٦٦هـ)، وهي أول مدرسة متخصصة بعلوم الحديث الشريف[٥].

كما حظيت المدارس باهتمام السلاطين والأمراء في العهد الأيوبي، وبنيت عشرات المدارس في عموم المدن الإسلامية. ولما جاء المماليك "أصبح من المعتاد طوال عصرهم أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر، وينسحب هذا القول على معظم سلاطين المماليك، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها[٦]. ويمكن ملاحظة حركة بناء المدارس من خلال تحديد أولى المدارس التي افتتحت في أبرز الأمصار الإسلامية حسب الجدول الآتي:

---

(1) Encyclopaedia of Islam, Art-Masjed p354

(٢) انظر: المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي، التكملة لوفيات النقلة، ج٢، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٤٠٩.

(٣) لم أعثر على ترجمة له في كتب التراجم والأعلام. انظر: العلموي، عبد الباسط، مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقي، دمشق، د.ط، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ص٩٤.

(٤) محمود بن زنكي، نور الدين، الملك العادل، ملك الشام والجزيرة ومصر، كان والده من موالي السلجوقيين، تولى إمارة حلب بعد وفاة والده سنة ٥٤١هـ، فاستقل عنهم، وامتدت سلطته إلى دمشق والموصل ومصر، توفي في دمشق سنة ٥٦٩هـ. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج٧، ص١٧٠.

(٥) أبو شامة المقدسي، الروضتين من أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (مرجع سابق)، ج١، ص٤٧.

(٦) عبد العاطي، عبد الغني محمود، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٨٤م، ص١١٨.

الإقليم	المدرسة	السنة
بلاد خراسان وما وراء النهر	مدرسة الأمير إسماعيل ببخارى وقيل: مدرسة أبي حفص الفقيه[١]	قبل عام ٢٩٥هـ قبل عام ٢١٧هـ
العراق	مدرسة ابن اللبان الفرضي	٣٨٣هـ
الشام	المدرسة الصادرية	٤٩١هـ
اليمن	مدرسة الجند، ومدرسة زيد بن الحسن	٥٢٨هـ
مصر	المدرسة العوفية	٥٣٢هـ
الحجاز	مدرسة الزنجبيلي	٥٧٩هـ
تونس	المدرسة الشماعية (الحفصية)	٦٣٣هـ
المغرب	مدرسة أبي الحسن الشاري وقيل: مدرسة المرابطين (الصابرين)[٢]	٦٣٥هـ ٤٦٢هـ
الأندلس	مدرسة غرناطة الأولى	قبيل عام ٧٠١هـ

وأخذت حركة بناء المدارس تتسع وترتقي في بنيانها وإدارتها ونظامها. وشاعت المدارس الرسمية التي كانت تشرف عليها الدولة. وكانت المدارس تختص في العلوم التي تدرسها كدور القرآن أو دور الحديث أو مدارس الفقه أحادية المذهب، وبعضها ثنائية المذهب. إلى أن تم افتتاح "أول جامعة في العالم الإسلامي احتوت إضافة إلى المذاهب الفقهية الأربعة على عدة مدارس وأقسام علمية.."[٣]. وهي المدرسة

(١) اختلف الباحثون في تاريخها. راجع الحاشية من (٣) من الصفحة (٢٠)، من نفس المبحث.

(٢) يؤكد الدكتور عبد الهادي التازي أن هذه المدرسة أسسها يوسف بن تاشفين في مدينة فاس بعد تأسيس المدرسة النظامية بثلاث سنوات، وكانت تقوم بمهمتها طيلة أيام المرابطين، وما تزال بعض أطلالها ماثلة. انظر: التازي، عبد الهادي، جامع القرويين، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص١٢٢.

(٣) معروف، ناجي، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٢٢٢.

المستنصرية التي افتتحها المستنصر بالله[1] (ت:٦٤٠هـ/١٢٤٢م) عام ٦٣١هـ. وتعد المدرسة المستنصرية مدرسة حكومية رسمية لأنها أنشئت بأمر الخليفة وعلى نفقة بيت المال، وهي امتداد فكرة المدارس النظامية، ولكنها ذات نظرة شمولية حيث ضمت أصحاب المذاهب الأربعة وأهل القرآن والحديث وعلماء اللغة وغيرهم، وهذا شأن الخلافة في رعاية المذاهب المعتبرة كلها.

المطلب الثالث: عوامل نشأة المدرسة الإسلامية وازدهارها

على الرغم من أن المسجد كان المركز الرئيس للتعليم قروناً طويلة، فإن ذلك لم يحل دون ظهور مؤسسات تعليمية جديدة ساهمت في حركة النهضة العلمية في المجتمع الإسلامي. والمدرسة كواحدة من تلك المؤسسات لم تكن وليدة نفسها، فهناك جملة من العوامل والأسباب أدت إلى ظهورها وانتشارها. ومن هذه العوامل:

أولاً: العوامل الدينية:

لقد حظي العلم في الإسلام بمكانة عظيمة، فهو من الركائز التي تقوم عليها الرسالة الإسلامية إلى جانب العقيدة والأخلاق، وطلبه فريضة محكمة لا تقل أهمية عن الفرائض الأخرى، ومدارسته عبادة من أرقى العبادات، ونشره من أقرب القربات وأنفع الصدقات، ومداد العلماء يعدل دماء الشهداء يوم القيامة، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، ولذلك ظهر اهتمام المسلمين بالتعلم والتعليم. وانصب اهتمامهم في بادئ الأمر على العلم الديني نظرا لحاجة الناس إلى فهم أصول دينهم وأحكام شريعتهم. ومن الطبيعي أن تكون المساجد المكان الأنسب لنشر العلوم والثقافة الدينية العامة.

ولكن النظرة الشمولية للعلم في الإسلام تتعدى العلم الديني، لتمتد إلى كل ما هو نافع ومفيد في شؤون الدين والدنيا. ومن واجب الأمة تهيئة أسباب تعلمه

---

(١) منصور (المستنصر بالله)، بن محمد (الظاهر بأمر الله)، بن الناصر، خليفة عباسي، ولد سنة ٥٨٨هـ، ولي بغداد بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٣هـ، كان حازماً، عادلاً، حسن السياسة، توفي سنة ٦٤٠هـ. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج٧، ص٣٠٤.

لجميع المسلمين أو لطائفة منهم حسب ما تقتضيه حاجة المجتمع، وبالتالي فإن وجود العلماء المتخصصين في كل فرع من فروع العلم هو فرض كفاية على المسلمين. وهذا بدوره ساهم في ظهور مؤسسات تعليمية جديدة تردف المسجد في مهمته التعليمية والتربوية، وتوفر بيئة تعليمية منهجية مبرمجة قد لا تتوافر في المسجد. ولذلك اتجه بعض العلماء إلى التعليم في بيوتهم. وقد اشتهر عن ابن عباس ﷺ أنه في أواخر أيامه اتخذ منزلاً في الطائف يعلم الناس فيه ويدارسهم في علوم شتى، فجعل يوما للفقه ويوما للتأويل ويوما للمغازي ويوما للشعر..[١]. ومع تطور العلوم وتنوع الفنون وتعدد التخصصات، تحولت تلك البيوت إلى مدارس أهلية مستقلة. وقد امتازت هذه المدارس بشيء من الخصوصية والمنهجية، كما وفرت لأصحابها قسطا من الحرية، وما لبث أن تسابق العلماء والأمراء وأهل الخير إلى بناء المدارس رغبة في نشر العلم، وطلباً لمرضاة الله تعالى، وهذا ما أكده نور الدين زنكي[٢](ت:٥٦٩هـ/١١٧٤م) الذي اشتهر ببناء المدارس في بلاد الشام حيث قال: "نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين"[٣].

ثانياً: العوامل السياسية:

مع ضعف الخلافة العباسية عصفت بالبلاد الإسلامية صراعات سياسية اتخذت من الخلافات المذهبية غطاء لها. كما ظهرت بعض الحركات الباطنية والدعوات الشعوبية الهدامة التي كانت تهدف إلى القضاء على الخلافة الإسلامية وتقويض أركانها. ولذلك حرصت كل طائفة على استخدام كافة الوسائل لتثبيت أركان ملكها والقضاء على أعدائها. وكانت المؤسسات التعليمية واحدة من الوسائل التي استثمرها الحكام لهذه الغاية، بعد أن أدركوا أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي لبسط النفوذ والقضاء على الخصوم، إذ لا بد من محاربة الفكرة

---

(١) انظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٠٥.

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٣٤.

(٣) المقدسي، أبو شامة، الروضتين من أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (مرجع سابق)، ج١، ص٦١.

بالفكرة ومقارعة الحجة بالحجة، وهذا ما أراده الوزير نظام الملك من إنشاء شبكة من المدارس، التي مكنت من "تخريج جماعات مسلمة مثقفة ثقافة عالية، ومزودة بسلاح العلم والإيمان معا، للوقوف في وجه الأخطار التي كانت تهدد الدولة، وتفسد العقول"[١]. ولذلك كان نظام الملك يبعد عن مدارسه كل من يثبت عليه انحراف في الفكر أو العقيدة[٢].

وهذا ما حرص عليه السلاطين والأمراء الأيوبيون حيث "لم يولَّ قاضٍ ولا قُبلت شهادة أحد ولا قُدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب"[٣]. أي مذاهب أهل السنة والجماعة. ولا يمكن أن نفسر هذا العمل بدافع سياسي صرف، أو تعصب مذهبي، فقد تحرك بدافع الغيرة على الدين، والحرص على نشر العقيدة الصحيحة ومحاربة البدع والتطرف. ولقد أعرب نظام الملك عن تلك النوايا الصادقة عندما حدثت فتنة الحنابلة ببغداد فكتب إلى أبي إسحاق الشيرازي[٤] (ت:٤٧٦هـ/١٠٨٣م) أحد أبرز أساتذة نظامية بغداد يقول: "وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة"[٥].

---

(١) سعد الدين، محمد منير، المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص١٥.

(٢) يذكر أنه درس في نظامية بغداد علي بن محمد الفصيحي، ولما ثبت تشيعه أخرج منها، ورتب مكانه الشيخ أبو منصور. انظر: الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج١٥، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٦٧.

(٣) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٤٤.

(٤) إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي، أبو إسحاق، الشيخ الإمام. ولد في فيروز أباد سنة ٣٩٣هـ. اشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة، بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد فانتقل إليها ودرّس فيها بعد تمنع شديد. له تصانيف كثيرة منها: المهذب في الفقه الشافعي، والتبصرة في أصول الفقه، مات ببغداد سنة ٤٧٦هـ. انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٤، ص٢١٥ وما بعدها، برقم٣٥٦.

(٥) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١٦، ص١٩٠.

ومن ناحية أخرى أدرك أرباب السياسة أهمية دور العلماء والفقهاء وتأثيرهم الكبير على العامة، فعملوا على أن تكون هذه القوة في جانبهم. وكان السبيل الأنسب للتقرب إليهم بناء المدارس وإجراء الجرايات عليها، لأنهم يعلمون أن الكثير من العلماء كانوا ينأون بأنفسهم عن النزاعات السياسية، ويرفضون أن يصبحوا في سلك علماء الأمراء والسلاطين. وهذا ما حققه نظام الملك باستقطاب العلماء واستمالتهم من خلال افتتاح المدارس، فكان "من وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفاً، وجعل فيها دار كتب"[١]. وقد أعرب عن تلك الغاية للسلطان ألب أرسلان[٢] لما ثار عليه أحد أبناء عمومته فقال له: "قد جعلت لك من خراسان جنداً ينصرونك ولا يخذلونك ويرمون دونك بسهام لا تخطئ هم العلماء والزهاد، فقد جعلتهم بالإحسان إليهم من أعظم أعوانك"[٣].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض العلماء امتنعوا عن الالتحاق بركب علماء السلاطين، ورأوا أن في تلك المدارس الحكومية تقييد لحريتهم الفكرية أو طعن بنزاهتهم العلمية. و"لقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون سببا لارتفاعه"[٤]. وهذا لا يعني أن أولئك العلماء ممن سموا بعلماء السلاطين باعوا دينهم ومبادئهم من أجل المناصب، فقد "كانوا واعين بمسؤولياتهم ومحافظين على

(١) الأصفهاني، محمد بن حامد، تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق، بيروت، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ٥٩.

(٢) هو أبو شجاع محمد بن السلطان جغريبك داوود بن ميكائيل بن سلجوق التركماني الغزي، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان، من عظماء ملوك الإسلام، ولد عام٤٢٤هـ، وتسلطن بعد موت عمه طغرلبك عام ٤٥٦هـ، وتوفي عام ٤٦٥هـ. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، (مرجع سابق)، ج١٨، ص٤١٤، برقم٢١٠.

(٣) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد الجزري، الكامل في التاريخ، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٦٧.

(٤) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطني الرومي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢٢.

مراكزهم الروحية والقيادية بين الجماهير، ومن ثم فإنهم لم يسيروا مع هوى السلاطين، وخالفوهم عندما اصطدمت قراراتهم بأحكام الشريعة، وعزل منهم كثيرون، وتركوا مدارس السلطة، ولم يتخلوا عن إيمانهم برأيهم وعقيدتهم"[١].

ثالثاً: العوامل التنموية:

إن اتساع الدولة وتنوع إداراتها استدعى وجود عدد غير قليل من الموظفين الذين يتمتعون بقدر مناسب من العلم والكفاءة. ونظراً للظروف التي خلفتها الصراعات المذهبية السياسية، ولأن التدريس في المسجد كان مباحاً لكل من يجد في نفسه القدرة عليه، وكان الاستماع إلى الدرس مباحاً لكل من يرغب فيه، ونظراً لتشعب تلك الأعمال وأهمية تلك المناصب كان لا بد من إعداد فريق مؤهل من العاملين الذين يتصفون بالإخلاص والولاء. ومن هنا "أصبحت الحاجة ماسة إلى موظفين من قضاة وعمال وكتاب يتخرجون من مدارس منهجية على وعي بأصول العقيدة الإسلامية ويتعودون الطاعة والنظام، ضمن مناهج الدرس"[٢]، وهذا ما سعى إليه نظام الملك "ليضمن الموظفين الأكفاء الذين يطيعون أوامره ويطبقون قوانين الدولة بنزاهة وإخلاص"[٣]. ولذلك جعل من شروط القبول في مدارسه النظامية لكل من المدرس أو الطالب أن يكون شافعي المذهب أصلاً وفرعاً[٤]. وفعلا قامت تلك المدارس بدورها التنموي، فهذا الشيخ أبو إسحاق الشيرازي[٥] (ت:٤٧٦هـ/١٠٨٣م) يقول: "خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضيها أو فقيهها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي"[٦].

---

(١) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، دار الثقافة، الدوحة، د.ط، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٤٩.

(٢) علي، سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٣٥٦.

(٣) أمين، حسين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م. ص٢٢٣.

(٤) انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١٦، ص٣٠٤.

(٥) سبقت ترجمته صفحة: ٣٨.

(٦) السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٤، ص٢١٦.

رابعاً: العوامل الثقافية:

إن الرغبة الشديدة في نشر العلم وتثقيف المجتمع لدى العلماء ومن سار على دربهم من السلاطين والأمراء كان له دور بارز في نمو المدارس وازدهارها. والدليل على ذلك أن كثيرا من الأمراء الذين احتضنوا العلم وحملوا لواءه كانوا على دراية علمية واسعة، وكانت مجالسهم عامرة بالعلماء والفقهاء والأدباء، تقام فيها المناظرات، وتناقش المسائل الفقهية، كما اشتغل بعضهم برواية الحديث والنظر في القضاء. وهذا ما يفسر قيام هؤلاء السلاطين ببناء مدارس متنوعة المذاهب والعلوم، ولم يكتفوا بدعم مذهبهم أو العمل على توفير حاجة الدولة من الموظفين. فقد بنى نور الدين محمود زنكي[١](ت:٥٦٩هـ/١١٧٤م) المدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب[٢]، ووقف الأوقاف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها[٣].

خامساً: العوامل الحضارية:

إن الازدهار الحضاري الذي شهدته القرون الأولى ساهم في نشأة المدارس وانتشارها، لارتباط وجودها بكثرة العلوم وتنوعها وصناعة تعليمها، وهذا ما يراه ابن خلدون[٤] (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٦م). "فالعلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، والسبب في ذلك أن تعليم العلم من جملة الصنائع، والصنائع إنما تكثر

---

(١) سبقت ترجمته صفحة: ٣٤.

(٢) المقدسي، أبو شامة، الروضتين من أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (مرجع سابق)، ج١، ص٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ج١، ص٧١.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، ثم توجه إلى مصر، وولي قضاء المالكية، وتوفي فيها سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م. اشتهر بكتابه: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر"، طبع في سبعة مجلدات، أولها "المقدمة" وهي تعد من أصول علم الاجتماع. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج٣، ص٣٣٠.

في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة..."[١].

سادساً: العوامل الشخصية:

لم يقتصر بناء المدارس على فئة معينة في المجتمع، فقد شارك فيها السلاطين والأمراء والوزراء والولاة ومستخدمو الدولة والأثرياء والمعلمون وسيدات الأسر الحاكمة من زنكية وأيوبية.. حتى الخدم والعتقاء، كل هؤلاء انطلقوا في عملهم هذا من دوافع دينية في الأساس. ولكن مظاهر التقدير والاحترام والمكانة التي كان يحظى بها منشئ المدرسة حركت لدى بعضهم دوافع شخصية، حيث رأوا في عملهم هذا إرضاء للذات وإشباعاً لحاجات التقدير الاجتماعية. ومن ذلك: مشاركة الأعداد الغفيرة من كبار رجال الدولة وعلمائها في حفل افتتاح المدرسة، وتوافد المعلمين المشهورين والمتعلمين إليها، والإطراء والثناء الإعلامي على يد الشعراء والخطباء[٢].

كما كان لدى بعضهم دوافع شخصية أخرى نابعة من كونه من أصول غير عربية، فيرى في تقربه من العلماء وكسب ودهم وإكرامه لهم تكريماً لذاته ورفعا لمنزلته، وهذا ما عبر عنه الوزير نظام الملك عندما وشى به بعضهم عند السلطان أنه كان ينفق الأموال الطائلة على طلاب العلم والعلماء، وأن هذه الأموال تقيم جيشاً يركز رايته على أسوار القسطنطينية، فعاتبه السلطان في ذلك فأجابه: (يا بني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير. وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً..)[٣].

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، ١٩٨٨م، ص٢٧٦.

(٢) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص٥٤ بتصرف.

(٣) انظر: الطرطوشي محمد بن محمد الوليد، سراج الملوك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص١١١.

وكان لبعضهم دوافع شخصية خاصة "وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها، مع ما فيها غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال"[١].

سابعاً: العوامل الفنية:

يرى غير واحد من المفكرين أن نشأة المدارس ترجع لأسباب فنية متعلقة بآلية التعليم وطرقه وأنواع العلوم المستحدثة التي لا تتناسب مع طبيعة المسجد ووظيفته. حيث كان "صوت المدرس يلقي الدرس، وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث في المسجد شيئا قليلاً أو كثيراً من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها، فاتضحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً.. وشيء آخر هو أن العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثيراً من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال"[٢]. وشيء ثالث هو أن "طريقة التعليم التي كان يتم بها شرح وتعليم العلوم الدينية تختلف إلى حد كبير عن تلك التي تستخدم في تعليم العلوم الطبيعية والكيمياوية والرياضية. فالأخيرة تستوجب استخدام بعض الأجهزة والآلات مما لا يتوفر في المسجد"[٣].

وهذه ليست بأسباب كافية، فالمساجد منذ نشأتها اتسعت لمجالس العلم بأغراضها المختلفة وموادها المتنوعة، وظلت حلقات العلم تقام في المساجد طوال قرون متعاقبة. ثم إن مثل هذه المجالس التعليمية كانت تنعقد في أوقات تعقب

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، (مرجع سابق)، ص٢٧٦.
(٢) شلبي، أحمد، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٧٦م، ص١١٣.
(٣) علي، سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٣٠٨.

الصلاة، وكانت لها آدابها التي التزم بها العلماء والمتعلمون. ولا ننس أن علم الكلام والجدل والمناظرة علوم ترعرعت في جامع البصرة على يد المعتزلة الأوائل. ثم إن نشأة المدارس ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الدينية وخصوصاً الفقه، أما باقي العلوم الطبيعية فكانت لها مؤسساتها الخاصة.

ويرى بعض المستشرقين "أن ظهور المدارس لم يكن عند تخصيص جزء من المسجد وإطلاق اسم مدرسة عليه، بل كان عندما ظهرت جماعة أيقنوا أنه من الصعب عليهم أن يستمروا بواسطة هذه المعلومات الخاطفة وكانت رغبة هذه الجماعة في إيجاد دراسة عميقة كافية عاملا على إنشاء المدارس"[١].

وهذا الرأي منتقد أيضاً، فلقد "خرجت المساجد من قبل أن تقوم المدارس أئمة العلم وفطاحل العلماء والمثقفين بالآلاف في أجيال متعاقبة. كانوا متعمقين في دراساتهم وموسوعيين في معارفهم، ومنتجين في علومهم. لقد ألفوا في كل فن، واجتهدوا في كل علم... وكان التعليم بالمساجد يخدم كل زبائن العلم وطلاب المعرفة، المنتظمين منهم والعرضيين، المبتدئين والمنتجين، الرجال والنساء، ولم يقل أحد بأن هذا التعليم المسجدي كان سطحيا، أو متبخراً أو أولياً لا يشبع رغبات المتعلمين ودون مستوى المتخصصين"[٢].

المطلب الرابع: دورها في المجتمع

تشكل المدرسة نظاماً خاصاً من أنظمة التفاعل الاجتماعي، فهي مؤسسة متخصصة داخل المجتمع العام، ولها دورها ووظائفها المناسبة. وقد قامت المدرسة في المجتمع الإسلامي بجملة من الأدوار والوظائف "بعضها أساسية تعد من صميم رسالتها، وتعد سببا لقيامها، وهذه الوظائف قاسم مشترك بين المدارس كلها، وبعضها الآخر وظائف مكتسبة نشأت مع الحاجات الخاصة والظروف الاجتماعية المحيطة، وهذا النوع من الوظائف تتباين المدارس في النهوض به لأنه من قبيل

(١) بخش، خودا، الحضارة الإسلامية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٧١.

(٢) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٥٢.

الإضافي الذي قد يفرض عليها بفعل أحداث خارجية لا تنبع من محيط التعليم"[١]. وعليه فإنه ليس من الضروري أن تجتمع الأدوار كلها في مدرسة واحدة أو عصر واحد. وأهم هذه الأدوار:

أولاً: الدور التربوي والتعليمي:

يعد هذا الدور هو المحور الأساسي الذي من أجله أنشئت المدرسة "فالوظيفة الأساسية للمدرسة في نظر الإسلام هي تحقيق التربية الإسلامية بأسسها الفكرية والعقدية والتشريعية، وبأهدافها، وعلى رأسها هدف عبادة الله وتوحيده، والخضوع لأوامره وشريعته، وتنمية كل مواهب النشء وقدراته على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها"[٢].

ويبرز هذا الدور التربوي لتلك المدارس بالتركيز على العمل والتطبيق وغرس القيم إلى جانب التلقي والحفظ والفهم. ومن حرص الأولين على تلك المبادئ لم يكونوا يسمحون بممارسة العلم إلا لمن هم أهل له، وكانوا يبعدون عن مدارسهم سفلة الطباع وأصحاب الأهواء والبدع. وكانوا يرون أن العلم "لا يناله إلا من زكا زَرْعه، وخلا ذرعه، وكرم أَصله وفَرعه، ووَعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعهُ، فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء، وشبابه على الأحشاء، وشغل نهاره بالجمع، وليله بالجماع، وقطع سَلْوته بالغنى، وخَلوَته بالغناء، وأفرغ جِدّه على الكيس، وهزله في الكأس. والعلم ثمر لا يصلح إلا للغَرْس، ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلا في الصدر"[٣]. وبذلك صانوا العلم فصانهم، وعظموه في النفوس فعظموا.

---

(١) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٥٤.

(٢) النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣، ص١٤٨.

(٣) القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج٣، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م، ص٧٧٣.

وأما الدور التعليمي فيتضح من خلال ما قامت به المدارس من نشر العلم وتيسيره وترقيته وتوظيفه لخدمة المجتمع. ولا شك أن العلم بنظرته الشمولية لا يتوقف عند العلم الديني بل يتعداه إلى مختلف العلوم والفنون والآداب ضمن إطار إسلامي واضح يصب في مصلحة الفرد والمجتمع، بصرف النظر عن الوجهات المختلفة في التفاضل بين العلوم ومكانتها.

ولم تكن هذه المدارس مجرد أشكال رمزية، ولا مدارس فئوية لأبناء الصفوة أو السطوة، فقد كان العلم في المجتمع الإسلامي للعامة والخاصة، وفتحت المدارس أبوابها لجميع الراغبين في العلم، ووفرت لهم المستلزمات والإمكانات، ليتفرغ هؤلاء كلهم للعلم والبحث.

ويلحق بهذا الدور عدة أدوار فرعية منها:

١. نمو حركة البحث العلمي

كان للمدرسة دور كبير في دفع حركة التجديد العلمي من خلال توفير مناخ فكري يتميز بالحيوية، مع تأمين الكفاية المعيشية المناسبة، فانعكس ذلك على وفرة الإنتاج العلمي والتنافس في التصنيف والتأليف والابتكار. وازدحمت المكتبة الإسلامية بآلاف المصنفات حتى "عد الذهبي (ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م) من كتب القراءات في فترة من الفترات تسعة وأربعين كتابا"[(١)]. ومن ذلك ما قدمه علماء المدرسة النظامية وفي مقدمتهم الإمام الغزالي[(٢)] (ت:٥٠٥هـ/١١١١م) من مؤلفات جليلة في الفقه والأصول واللغة وعلم الكلام. وما قدمه علماء المدرسة المستنصرية من مصنفات قيمة في الطب والرياضيات والجبر والهندسة والفرائض وغير ذلك.

---

(١) علي، سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٣٣٤.

(٢) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الإمام أبو حامد، حجة الإسلام، ولد بطوس من أعمال خراسان سنة٤٥٠هـ، رحل إلى نيسابور، ولازم إمام الحرمين، وبرع في المذهب والخلاف والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وصنف في كل فن من هذه العلوم كتبا بلغت نحو مئتي مصنف. رحل إلى بغداد، ودرس بالنظامية، ثم سلك طريق الزهد، ارتحل إلى الحجاز والشام ومصر. ثم عاد إلى بلدته واشتغل بالحديث والتصوف إلى أن توفي فيها سنة ٥٠٥هـ. انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٦، ص١٩١، برقم: ٦٩٤.

٢. حفظ التراث ونقله:

ساهمت المدرسة مع غيرها من المؤسسات التعليمية في حفظ التراث ونقله من جيل سابق إلى جيل لاحق، وساعدها على ذلك الحرية في اختيار المناهج، والتنوع الكبير في المصادر، مما فتح المجال أمام العلماء لإطلاع تلاميذهم على ذلك التراث الضخم بأمانة علمية، ودقة موضوعية. وفي الوقت ذاته كان عليهم أن يربوا النشء على الامتناع عن قبول أي شيء دون التثبت منه، وأن يضعوا ضوابط ومعايير لانتقاء عناصر التراث الفكري والثقافي. إذ "لم تكن المدرسة لتقدم التراث الإسلامي أو التراث الإنساني إلا من خلال مصفاة عملت على تطهيره من كل شائبة أو تحريف"[(١)].

٣. التثقيف العام:

لم يتوقف دور المدارس في التربية والتعليم عند الطلبة المنتسبين إليها، فقد أسهمت بمهمة التوعية والتثقيف العام، "حيث كانت تفتح أبوابها للجماهير المحبة للثقافة، وتسمح لهم بحضور الدروس العامة التي يلقيها الأساتذة، وهي مختلفة عن الدروس الخاصة التي كانت تقدم لطلبة المدارس النظاميين. كما كانت هناك دروس مشتركة ينتظم فيها الطلبة والمستمعون"[(٢)]. وكانت المدارس الكبرى كالنظاميات تعمل على ترتيب وعاظ بمدارسها ممن اشتهروا بهذا الفن الديني، والذين كانت تغص مجالسهم بالآلاف من المستمعين[(٣)].

٤. المكتبة المدرسية للجميع:

تعد المكتبة من أبرز مرافق المدرسة، لما لها من أهمية في الدرس والبحث، فبدونها لا يتمكن الباحثون "من الاطلاع أو مراجعة ما يمليه عليهم أساتذتهم من

---

(١) سعد الدين، محمد منير، المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، (مرجع سابق)، ص٣٠.

(٢) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٦١.

(٣) من الوعاظ المشهورين: الشيخ أحمد الغزالي والشيخ أبو منصور البروي، والمظفر العبادي وغيرهم.
انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (مرجع سابق)، ج١، ص٩٧، برقم٣٨. وج٤، ص٢٢٥، برقم٥٩٢. وج٥، ص٢١٢، برقم٧٢٣.

آراء الفقهاء وغيرهم، كما أتاحت لهم فرصة ذهبية وهي حرية البحث والاطلاع في العلوم المختلفة بصرف النظر عما إذا كانت تدرس من عدمه، كما أعانتهم على سرعة الفهم ومتابعة الأساتذة والتجاوب معهم باطلاعهم على الدروس التي ستلقى عليهم في اليوم الثاني شرحا وإملاءً"[١]. ومن ناحية أخرى كان الأساتذة "لا يكتفون بالشرح بل يأخذون الطلاب إلى المكتبة ويدلونهم على المراجع في موضع الدرس، وقد يظل الطلاب في قراءات ومناقشات مع الأساتذة داخل المكتبة الساعات الطوال"[٢].

وكانت مكتبات المدارس تسمح بالإعارة الخارجية، باستثناء بعض المدارس التي اقتصرت على المطالعة والإعارة الداخلية، حرصاً منها على الكتب، وخوفا عليها من التلف والضياع كخزانة كتب المدرسة المحمودية، فلم يكن يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة[٣]. وغالبا ما يكون ذلك من شروط الواقف.

وتبرز الأهمية القصوى لهذه المكتبات من خلال حالة الكتاب في ذلك العصر. فقد كان من الصعب وصول طالب العلم إلى الكتاب أو حصوله عليه، حيث "أن الكتب لم تكن منتشرة، ولم يكن باستطاعة الكثيرين شراءها نظراً لارتفاع أثمانها وقلة عدد الموجود منها، لأن جميع الكتب كانت مخطوطات مرتفعة الثمن باهظة التكاليف لارتفاع أثمان مواد الكتابة من الأوراق والأقلام والمواد بالإضافة إلى ارتفاع أجرة اليد العاملة في النسخ"[٤].

ولذلك أكثر مؤسسو المدارس من وقف الكتب عليها، وهيئوا لها المكان المناسب، وعينوا الخزنة والنساخ والمشرفين، ووضعوا نظاما لإعارة الكتب

---

(١) الجندي، مجاهد توفيق، دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية، دار الوفاء، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٥١.

(٢) النقيب، عبد الرحمن، الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، ١٩٨٤م، ص١٢١.

(٣) انظر: المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٩٥.

(٤) الجندي، مجاهد توفيق، دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص١٥٠.

ومطالعتها. كما تنافس العلماء والأمراء في إهداء كتبهم أو وقفها على مكتبات المدارس. واستوت في ذلك المدارس الأهلية والمدارس الحكومية، ففي مدرسة ابن حبان التميمي[١] (ت:٣٥٤هـ/٩٦٥م) "خزانة كتبه في يدي وصي سلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يخرجه منها"[٢]. وفي المدرسة المستنصرية ببغداد خزانة نقل إليها يوم تكامل بناء المدرسة من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية حِمل مئة وستين جملاً[٣]. ووقف على المدرسة الفاضلية بمصر جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مئة ألف مجلد[٤]. وفي المدرسة المحمودية بمصر خزانة كتب لا يعرف بديار مصر ولا الشام مثلها[٥]. و"في معظم الأحيان يندر أن تخلو مدرسة أو مسجد أو جامع أو مستشفى أو غير ذلك من معاهد العلم دون أن تجد مكتبة عامرة ملحقة بها"[٦].

وهذا مؤشر هام على تلك المكانة التي تمتع بها الكتاب في ذلك العصر، وعلى مدى عناية المسلمين بالعلم ورعايتهم للعلماء والمتعلمين. وإلى تلك الخزائن والمكتبات يرجع الفضل في صيانة الكثير من التراث الإسلامي والعالمي.

٥. توفير السكن للمعلمين والمتعلمين:

تعد بيوت السكنى في المدرسة أبرز ما يميز المدرسة عن المسجد. ويرى بعض الباحثين "أن المدرسة لم تطلق إلا على المكان الذي فيه بيوت للطلبة"[٧]، وأن "وظيفة

---

(١) سبقت ترجمته صفحة: ٣١.

(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، (مرجع سابق)، ج١، ص٤٩٧.

(٣) انظر: ابن الفوطي عبد الرزاق البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، مطبعة الفرات، بغداد، د.ط، ١٣٥١هـ، ص٥٤.

(٤) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٦٦.

(٥) انظر: المرجع نفسه، ج٢، ص٣٩٥.

(٦) عبد الغني، عارف، نظم التعليم عند المسلمين، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٢٨٣.

(٧) معروف، ناجي، تاريخ علماء المستنصرية، دار الشعب، القاهرة، ط٣، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ج١، ص١٨٧، الحاشية رقم ١٥.

المدرسة الأولى إعداد مكان ملحق بموضع التدريس لسكنى فئة مختارة من المدرسين والطلاب ولسكنى الشيوخ والفقهاء"[١].

وفي الحقيقة فإن توفير السكن ليس بغاية في حد ذاته، وإنما هو وسيلة أساسية للتمكن من الانقطاع لطلب العلم والتفرغ للدرس والبحث. لذلك لم يقتصر الأمر على توفير السكن فحسب، فقد رافق ذلك مستلزمات الإقامة الداخلية من النفقة والطعام واللباس والخدمة ولوازم النظافة والرعاية الصحية وغير ذلك. وكانت هذه المدارس بمرافقها "شبيهة بالمدن الجامعية اليوم، مع الفارق الكبير في وفرة الخدمات التي تقدمها للطلبة والساكنين بتوفير جو من الهدوء والراحة والنظام"[٢].

وقد ذكر الرحالة ابن جبير[٣] (ت:٦١٤هـ/١٢١٧م) صورة مما يلقاه طلبة العلم الغرباء الذين "يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه، وإجراء يقوم به جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج مَن مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم"[٤].

وكانت إقامة العلماء أو المتعلمين في المدرسة تخضع لشروط الواقف من حيث العدد والمدة والحالة.. ففي المدرسة المستنصرية مثلاً عيَّن المستنصر بالله[٥] (ت:٦٤٠هـ/١٢٤٢م) لها مدرسَين اثنين ونائبَي تدريس، وتخير لكل مذهب أربعة معيدين. وشرط أن يكون عدة الفقهاء (طلبة العلم في الفقه) مئتين وثمانية وأربعين

---

(١) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، (مرجع سابق)، ج٢، ص١٥٥.

(٢) النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م، ص٣١٦.

(٣) محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين، رحالة وأديب، ولد في بلنسية، ونزل بشاطبة، زار بلاد المشرق ثلاث مرات، ومات بالاسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦١٤هـ. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج٥، ص٣١٩.

(٤) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (المعروف بـ: رحلة ابن جبير)، مطبعة دار السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ص١٠.

(٥) سبقت ترجمته صفحة: ٣٦.

متفقهاً، من كل طائفة اثنان وستون. وشرط أن يكون في دار الحديث التي بها شيخ عالي الإسناد وقارئان وعشرة أنفس يشتغلون بعلم الحديث النبوي الشريف. وشرط أن يرتب بها طبيب حاذق وعشرة أنفس من المسلمين يشتغلون بعلم الطب[١].

وغالباً ما كان ينزل في الغرفة شخص واحد. وقد ينزل في الغرفة أكثر من طالب نظرا للإقبال الشديد على بعض المدارس، ففي المدرسة الصاحبية البهائية التي "كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر، كان طلبة العلم يتنافسون في النزول بها ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة"[٢].

ولقد وضعت قواعد تنظم السكن في تلك المدارس الداخلية بشكل دقيق بحيث "تراعي حالة السكن الصحية، واختيار المكان الملائم، كما روعي المستوى الأخلاقي للطلبة عند اختيار أماكن سكناهم بالمدرسة مما يضمن حسن العلاقة بين جميع الساكنين"[٣]. وقد اجتهد العلماء في تفصيل القول بالآداب التي يجب أن يتحلى بها الساكنون في المدرسة، وخاصة في ما يتعلق بالمحافظة على مبنى المدرسة وصيانته، والمحافظة على السمعة الأخلاقية الجيدة للمدرسة.

ثانياً: الدور الديني:

نشأت المدرسة في ظل رعاية المسجد للحركة التعليمية، وهذا ما جعلها ترادفه في الشكل والمعنى، لذلك لم يكن مستغربا أن تقوم المدرسة برسالة المسجد من إقامة الشعائر، وإصدار الفتوى والقيام بالوعظ والإرشاد. "فالأسلوب التكاملي والرؤية الشاملة اللذان تميز بهما الإسلام جعلا المدرسة تشارك المسجد في وظيفته الدينية البحتة في الوقت الذي ظل فيه المسجد مستمرا في أداء بعض المهام التربوية"[٤].

---

(١) انظر: ابن الفوطي، عبد الرزاق البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، (مرجع سابق)، ص٥٥ وص٥٨.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٧١.

(٣) عبد العاطي، عبد الغني محمود، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، (مرجع سابق)، ص٣٠٥.

(٤) علي، سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٣٣٢.

وليس أدل على ذلك من تصميم أبنية المدارس على الشكل الذي يتناسب وأداء هذه الرسالة. فالمئذنة والمنبر والمحراب وقاعة الصلاة معالم واضحة بدت في تخطيط المدارس. وكانت قاعة الصلاة تتصدر بناء المدرسة، وتعد أكثر قاعاتها أهمية واتساعا[١]. "ولا تكاد تخلو شروط وقفية من وقفيات المدارس في أي من البلدان العربية من ذكر إمام وخطيب يعين من بين المدرسين أو بالإضافة إليهم، وكذلك من ذكر المؤذن، إذ أنه كان غالبا ما يراعى تزويد كل مدرسة بمئذنة"[٢]. وقد أشار المقريزي (ت:٨٤٥هـ/١٣٦٥م) إلى ذلك في خططه عند حديثه عن مدارس مصر[٣]

ولم يكن أداء الشعائر الدينية في المدرسة مقصوراً على أساتذتها وطلابها، بل كان لكل أهل الحي. ففي المدرسة المنصورية كانت الأبواب تفتح وقت الصلاة ثم تغلق بعد انقضائها[٤].

وفي مسجد المدرسة كانت تقام صلاة الجمعة والصلوات الخمس، ويشارك فيها الأساتذة طلابهم، ليكونوا لهم قدوة حسنة، وليلحظوا عبادتهم، ويزكوا نفوسهم، ويحسنوا توجيههم نحو الهدف الأسمى وهو عبادة الله وحده. وبهذا تؤدي هذه المدارس دورها في غرس القيم الدينية بشكل عملي، وبناء شخصية متكاملة روحاً ونفساً وعقلاً وجسماً.

ومما يلحق بهذا الدور:

١. المدرسة مركز إفتاء وقضاء

أدت المدرسة بصورة أو بأخرى دوراً من أدوار المحاكم الشرعية، نظرا لكون معظم أساتذتها من القضاة والمفتين، لذلك كان من الطبيعي أن يجلسوا للقضاء

---

(١) انظر: فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، (مرجع سابق)، ج٢، ص١١٨.

(٢) المرجع نفسه،ج٢، ص١٩١.

(٣) مثل: المدرسة الناصرية، والصالحية، والصاحبية، والأشرفية، والجاي. انظر: المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٠٩ وما بعدها، وص٣٧١ وما بعدها.

(٤) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٨٠.

والإفتاء في مدارسهم. وكان خاصة الناس وعامتهم يتوجهون إلى المدارس لاستفتاء أساتذتها في مسائل شرعية. أو التحاكم إليهم في قضاياهم. ومن ذلك ما ذكره ابن بطوطة[١] (ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) أنه أثناء نزوله بشيراز جاءت أم السلطان وأخته إلى المدرسة المجدية وتحاكمتا إلى أستاذها، وفصل بينهما بواجب الشرع[٢]. ويذكر أن امرأة دخلت مدرسة الشهيد بماردين تسأل أحد أساتذتها عن الحيض، وجرى معه موقف طريف[٣].

وفي بعض المدارس كانت تبرم عقود الزواج، ففي المدرسة التقوية والمدرسة العزيزية كان بعض الأساتذة يتولى عقود الأنكحة[٤].

وكان بعض القضاة يتخذ من مدرسته مقراً للقضاء، ففي دمشق كانت المدرسة الجوزية مقر الشيخ المتولي لنيابة الحكم، كما كان يجتمع فيها كل يوم نواب القاضي وشهود المجلس الثمانية، وقد سميت هذه المدرسة (دار الحكم)[٥]. واتخذ قاضي قضاة المالكية بدمشق من المدرسة الصمصامية سكناً ومجلساً لأحكامه

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة. ولد بطنجة بالمغرب الأقصى سنة ٧٠٣هـ، ونشأ فيها، وخرج منها سنة ٧٢٥هـ وطاف بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام والعراق وخراسان ووصل الصين، واتصل خلال رحلته بكثير من الأمراء، واستغرقت رحلته ٢٧سنة، وتوفي بمراكش سنة ٧٧٩هـ. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (مرجع سابق)، ج٦، ص٢٣٥.

(٢) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المشهور برحلة ابن بطوطة)، المطبعة الأزهرية، مصر، ط١، ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، ج١، ص١٢٩.

(٣) يذكر أن امرأة دخلت على الحسن بن شرف شاه الأستراباذي، فسألته عن أشياء مشكلة في الحيض، فعجز عن الجواب، فقالت له: أنت عذبتك واصلة إلى وسطك وتعجز عن جواب امرأة، فقال لها: يا خالة لو علمت كل مسألة أسأل عنها لوصلت عذبتي إلى قرن الثور. انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٩، ص٤٠٨.

(٤) انظر: المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)، تحقيق: عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ص١١٢، وص١٤٩.

(٥) انظر: ابن طولون، محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، (تاريخ مصر والشام)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م، قسم٢، ص٤١.

القضائية. وفي المدرسة العادلية كان يجلس قاضي قضاة الشافعية[١]. كما كانت المدرسة العذراوية محلا للتقاضي، وكان يرسم فيها حكم السلطان"[٢].

وفي مصر اتخذت المدرسة الصالحية في زمن الأيوبيين مقراً رئيساً للقضاء، وأقام فيها نوَّاب دار العدل[٣]، وفيها كانت تتم مراسيم تقليد قاضي القضاة[٤].

٢. المدرسة مصلى لجنازة علمائها، ومدفن لمؤسسيها

كانت صلاة الجنازة تؤدى في المساجد، وقد شاركت المدرسة بأداء هذا الدور، حيث حمل بعض العلماء إلى المدارس للصلاة عليهم إكراماً لهم وتقديراً. ففي المدرسة النظامية صلى الناس صلاة الجنازة على الفخر البغدادي[٥] (ت:٦٨٥هـ/١٢٨٦م). وفي المدرسة المستنصرية "أقيم العزاء لعدد من وجوه القوم، وصلي على عدد من جنائزهم فيها"[٦].

كما أسهمت المدرسة برفع شأن مؤسسيها، وإحياء ذكرهم بعد وفاتهم، حيث كان يخصص في المدرسة مكانا لدفن مؤسس المدرسة، طلبا للدعاء، وحرصا على زيادة الأجر والثواب، "حتى ما كادت تبنى مدرسة إلا وأعد فيها مكان ضريح لمنشئها أو لأحد أفراد أسرته"[٧]. والشواهد على ذلك كثيرة[٨].

---

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المشهور برحلة ابن بطوطة)، (مرجع سابق)، ج١، ص٥٨.

(٢) انظر: ابن طولون، محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، (تاريخ مصر والشام)، (مرجع سابق)، قسم١، ص٧٥.

(٣) أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٧٤.

(٤) عبد الغني محمود عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، (مرجع سابق)، ص١٨٨.

(٥) هو: إياس بن عبد الله من موالي الإمام الظاهر بن الإمام الناصر لدين الله الطيبي البغدادي الظاهري. كان ثقة جليلاً. توفي سنة: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م. انظر: السلامي، محمد بن رافع، تاريخ علماء بغداد، المسمى منتخب المختار، مطبعة الأهالي، بغداد، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ص٤٣.

(٦) معروف، ناجي، تاريخ علماء المستنصرية، (مرجع سابق)، ج٢، ص٤٣٥.

(٧) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، (مرجع سابق)، ج٢، ص١٢١.

(٨) ممن دفنوا بمدارسهم: الوزير ابن هبيرة، والجيلي، والسهروردي، والسلطان سيف الدين قلاوون وأبناؤه، والسلطان نور الدين زنكي، وغيرهم. انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في =

وكانوا يحرصون على دفن مؤسس المدرسة في الضريح المعدِّ له في مدرسته ولو اضطروا لنقل جثمانه بعد دفنه في مكان آخر. كما نقل بعضهم بعد وفاتهم من أماكن بعيدة إلى مدارسهم ليدفنوا فيها[١].

ثالثاً: الدور الاجتماعي:

لم تكن المدرسة الإسلامية يوما بعزلة عن المجتمع، ولم تنأى بنفسها عما يجري فيه من أحداث، فالمدرسة "نقطة الالتقاء لعدد كبير من العلاقات الاجتماعية المتداخلة المعقدة.

وهذه العلاقات الاجتماعية هي المسالك التي يتخذها التفاعل الاجتماعي والقنوات التي يجري فيها التأثير الاجتماعي"[٢]. لذلك أسهمت في تحسين أوضاع المجتمع، وقدمت خدمات له، وساعدته على التطور، وهذا يعد جزءا من رسالتها التربوية الشاملة. فالمدرسة "مؤسسة تعليمية ذات وظيفة اجتماعية مسايرة لتطورات الحياة الاجتماعية"[٣]. ووصفها بعضهم "بأنها مؤسسة تنظيمية تقوم على خدمة المجتمع، ودراسة البيئة والتعرف عليها، والوقوف على مواردها واحتياجاتها... والمؤسسة الوحيدة التي ترتبط بجميع أفراد البيئة هي المدرسة"[٤]. ولهذا وعت المدرسة الإسلامية هذا الدور على الصعيد الداخلي والخارجي أي في مجتمعها الصغير ضمن المجتمع الكبير.

=

تاريخ الأمم والملوك، (مرجع سابق)، ج١٨، ص١٧٠، وص١٧٣، وص١٨٠. وانظر: المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٨٠.

(١) نقل الملك العادل بعد دفنه في قلعة دمشق إلى مدرسته العادلية، كما نقل الظاهر بيبرس بعد دفنه في القلعة إلى مدرسته الظاهرية، انظر: العلبي، أكرم، خطط دمشق، (مرجع سابق)، ص١٢٠ و١٣٥، و١٤١.

(٢) النجيحي، محمد لبيب، الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٧٦م، ص٧٤.

(٣) سعد الدين، محمد منير، المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، (مرجع سابق)، ص٣٢.

(٤) أحمد، أحمد كمال، و سليمان، عدلي، المدرسة والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣.

ومن أبرز وظائفها الاجتماعية:

١. المدرسة مركز لدعم التماسك الاجتماعي:

لقد كانت المدرسة الإسلامية مفتوحة الأبواب للجميع فقد "استفاد طلبة العلم من تلك المبادئ السامية التي نادى بها الإسلام، من مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص في التعليم للجميع، ومبدأ مجانية التعليم، حيث فتحت أبواب المؤسسات التعليمية للغني والفقير على حد سواء، فمتى كان المتعلم أهلا وراغبا ومحبا للعلم والبحث والاطلاع تيسرت له وسائل التعلم، وفتحت أبوابه أمامه، ولقي التشجيع من الجميع"(١).

ويمكننا القول إن المدرسة الإسلامية تمكنت من "القضاء على عدم تكافؤ الفرص التعليمية بإعطاء الفقراء منحاً وأشكالاً أخرى من المساعدة على شرط أن تكون لديهم القدرة على متابعة الدراسة وعلى التخصص في النواحي التعليمية المختلفة. وبذلك يستطيع أفراد المجتمع أن يتنافسوا على أساس متكافئ بصرف النظر عن المستوى الاقتصادي والاجتماعي"(٢).

ولقد كان الإسلام سبَّاقا في هذا المجال. فإذا رجعنا في التاريخ إلى الوراء، وطرقنا أبواب التربية عند اليونانيين وغيرهم من الشعوب لرأينا بوضوح ذلك التمايز في التعليم بين أفراد المجتمع. "فلم ينظر الأثينيون وجيرانهم الأسبرطيون، ومن قبلهم الهنود البراهمة، ومن بعدهم الرومان وأوروبا العصور الوسطى، لم ينظروا إلى التربية على أنها حق لكل الناس، لكل أفراد الشعب، حق كأشعة الشمس والهواء، كانت التربية حقاً استمتاعيا وزينة للمواطن الأثيني الذكر الحر، أما العبيد وغير الأثينيين والنساء فليس لهم ذلك الحق"(٣).

بينما تمكن الإسلام بمبادئه السمحة وتربيته الشاملة ومن خلال مؤسساته التربوية والتعليمية أن يصهر الأعراق والجنسيات والطبقات جميعها في بوتقة الإيمان

---

(١) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص٦٣.

(٢) النجيحي، محمد لبيب، الأسس الاجتماعية للتربية، (مرجع سابق)، ص٨٠.

(٣) أحمد، سعد مرسي، تطور الفكر التربوي، عالم الكتب، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٢م، ص١٧٠.

والتوحيد. وكانت المدرسة الإسلامية عاملا من عوامل تحقيق الوحدة الإسلامية وتوثيق الروابط بين مختلف أقطار العالم الإسلامي.

٢. المدرسة مركز للمناسبات الاجتماعية:

كان للمدرسة الإسلامية حضورها في المناسبات الاجتماعية ومشاركتها في الاحتفالات الدينية، حيث "نظمت في كل مدرسة قاعات فسيحة تتناسب مساحاتها مع الغرض الذي أعدت له"[١]. كالاجتماعات والمناظرات والندوات وغير ذلك. ولم تخل الحياة داخل المدرسة "من بعض الاحتفالات التي تقام للترفيه والتوسعة على العاملين في المدرسة سواء من المدرسين أو الطلبة أو غيرهم في المواسم الدينية، فتفرق عليهم اللحوم والسكر والمأكولات والحلوى، خصوصاً في الأعياد وشهر رمضان ويومي تاسوعاء وعاشوراء"[٢]. وكثيراً ما أقيمت الموالد بميادين المدارس. وكانت المواكب تخرج من المدرسة المنصورية ليلة رؤية هلال رمضان، فيحمل الناس الفوانيس والمشاعل ويطوفون بشوارع القاهرة، وكان ذلك يتكرر في كل سنة[٣].

٣. المدرسة مركز ترقية اجتماعية للعلماء.

حفظت المدرسة للعلماء مكانتهم، فكانت بابا للترقي والصعود الأدبي والاجتماعي، ومكانا للتقدير والتكريم، وسببا للشهرة والسمعة. فهذا الحافظ أبو علي البلخي[٤] (ت:٤٧١هـ/١٠٧٨م) يقول: "رحلت وقاسيت الذل والمشاق (في طلب العلم)، ورجعت إلى وخش (من قرى بلخ)، وما عرف أحد قدري، فقلت: أموت ولا

(١) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، (مرجع سابق)، ج٢، ص١٢١.

(٢) عبد العاطي، عبد الغني محمود، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، (مرجع سابق)، ص٣٠٢.

(٣) انظر: ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢١١، وج٥/ص٣٩٦.

(٤) هو الشيخ الإمام الحافظ أبو علي الحسن بن علي بن محمد البلخي الوخشي، نسبة إلى وخش من قرى بلخ، ولد سنة ٣٨٥هـ، ورحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر، وذاكر الحفاظ، وسمع ببلخ ونيسابور وبغداد، بنى له نظام الملك مدرسة ببلخ. مات سنة ٤٧١هـ. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، (مرجع سابق)، ج١٨، ص٣٦٥، برقم١٧٦.

ينتشر ذكري، ولا يترحم أحد علي. فسهل الله نظام الملك حتى بنى هذه المدرسة (أي نظامية بلخ)، وأجلسني فيها حتى أحدث"[١].

كما حفظت المدرسة مكانة العلماء بعد وفاتهم، حيث أقامت بعض المدارس مجالس لتقبل التعازي بوفاة مدرسها، فعندما توفي الشيخ أبو إسحاق الشيرازي[٢] (ت:٤٧٦هـ/١٠٨٣م) "جلس أصحابه للعزاء بالمدرسة النظامية"[٣]. وفي المدرسة البادرائية بدمشق أقيم مجلس العزاء بالشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي[٤] (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م) وهو واقف المدرسة، وأول مدرس فيها، وكان قد توفي ببغداد[٥].

٤. المدرسة مركز رعاية صحية:

كانت المدرسة تؤمن لطلابها وجميع العاملين فيها الرعاية الصحية اللازمة، وذلك بتوفير طبيب مقيم، أو إقامة مارستان ملحق بالمدرسة. ولم تقتصر تلك الرعاية على المعلمين و المتعلمين المقيمين في المدرسة، بل كانت تشمل المنتظمين فيها بما فيهم الطلاب الطارئين حيث يُنصب لهم مارستان لعلاج مَن مرض منهم، ويوكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم[٦]. ولقد كان من شروط وقف المدرسة المستنصرية أن يكون فيها طبيب "يطبب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف، ويعطى المريض ما يوصف له

---

(١) المرجع نفسه، ج١٨، ص٣٦٧.

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٣٨.

(٣) ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (مرجع سابق)، ج١، ص٣١.

(٤) عبد الله بن أبي الوفاء بن محمد البادرائي، نسبة إلى بادرايا قرية من أعمال واسط، ولد سنة ٥٩٤هـ، فقيه شافعي برع في المذهب، ودرس في النظامية، وترسل غير مرة، وحدث بحلب ودمشق ومصر وبغداد. بنى بدمشق مدرسته المشهورة. ولي القضاء ببغداد على كره، وتوفي بعد توليه بخمسة عشر يوما سنة ٦٥٥هـ. انظر: ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (مرجع سابق)، ج٧، ص٤٦٤.

(٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، (مرجع سابق)، ج١٣، ص٢٠٩.

(٦) انظر: ابن جبير، محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، (مرجع سابق)، ص١٠.

من أدوية وأشربة وغير ذلك"[١]. وجاء في وثيقة وقف مدرسة السلطان حسن بالقاهرة أن يرتب الناظر في المدرسة ثلاثة أطباء الأول خبير بمعالجة الأبدان، والثاني عارف بطب العيون وصناعة الكحل، والثالث جراح مجبر، وعليهم أن يحضروا كل يوم إلى المدرسة، يداووا من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين فيها، ومن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس لهم سكن، وعلى الطبيب أن يتوجه إلى المريض في مكان إقامته، ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب[٢].

٥. المدرسة نزل للسفراء والحجاج والرحالة:

لقد كانت المدارس مقصد المهتمين بطلب العلم ممن تنقلوا في البلاد الإسلامية لمقاصد متعددة من سفراء وحجاج ورحالة وغيرهم. وكل هؤلاء كانوا يقصدون المدارس لاستثمار سفرهم في طلب العلم ومجالسة العلماء.

أما السفراء فكثيراً ما كان يقع الاختيار للقيام بمهام السفارة على العلماء كأمثال الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي البغدادي[٣] (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م) "مدرس النظامية ورسول الخلافة إلى ملوك الآفاق في الأمور المهمة وإصلاح الأحوال المدلهمة"[٤]. والشيخ محيي الدين يوسف بن الجوزي[٥] (ت:٦٥٦هـ/١٢٥٨م) سفير الخليفة العباسي إلى أمراء الشام ومصر، ومؤسس المدرسة الجوزية بدمشق[٦]. وتعد المدارس النزل المفضل لأمثال هؤلاء.

---

(١) ابن الفوطي، عبد الرزاق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، (مرجع سابق)، ص٥٩.

(٢) انظر: الحارثي، هويدا، وقف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون على مدرسته بالرميلة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٦٥.

(٣) سبقت ترجمته صفحة: ٥٨.

(٤) ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية، (مرجع سابق)، ج١٣، ص٢٠٩.

(٥) يوسف بن الشيخ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، محيي الدين، أبو المحاسن، العلامة، سفير الخلافة، أستاذ دار المستعصم بالله، ولد سنة ٥٨٠هـ، واشتغل بالفقه والخلاف والأصول، وبرع في ذلك، وكان أشهر فيه من أبيه. قتل صبراً بسيف الكفار عند دخول هولاكو سنة ٦٥٦هـ. انظر: ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (مرجع سابق)، ج٧، ص٤٩٤.

(٦) العلبي، أكرم حسن، خطط دمشق، (مرجع سابق)، ص٢٣٣.

كما كان عمال البريد ينزلون في المدارس إلى حين موعد سفرهم. يذكر المقريزي (ت:٨٤٥هـ/١٣٦٥م) عن المدرسة القراسنقرية: "كنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام وغيرها لا ينزلون إلا في هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم"[١].

وأما الحجاج فقد كانوا يستفيدون من رحلة الحج للقاء العلماء والأخذ عنهم، فكان بعضهم يقصد المدارس، ويؤثر النزول فيها. ولهذا كانت الإسكندرية محط رحال الحجاج المغاربة الذاهبين إلى الحج والعائدين منه[٢]، قاصدين مدرسة الشيخ أبي بكر الطرطوشي المالكي[٣] (ت:٥٢٠هـ/١١٢٦م).

وأما الرحالة الذين قضوا شطراً من حياتهم للوقوف على معالم البلدان ومعرفة أحوال الأمم، فقد كانوا يفضلون النزول في المدارس، ليتمكنوا من مجالسة علمائها، ويصفوا الحياة العلمية فيها. ومن ذلك ما ذكره ابن بطوطة[٤] (ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) أنه نزل بدمياط في مدرسة على شاطئ النيل[٥]، وفي دمشق الشام نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية[٦]، وفي شيراز كان نزوله في المدرسة المجدية خلال ذهابه وإيابه[٧].

وتجدر الإشارة إلى أن أهل بلاد فارس وخراسان كانوا يخصصون في بيوتهم دارا للضيافة يسمونها المدرسة. وقد أشار ابن بطوطة (ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) إلى ذلك في حديثه عن وصف تلك البلاد فقال: "في كل منزل من منازلها زاوية يسمونها

---

(١) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٣٨٨.

(٢) محمد، سعاد ماهر، مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون، ج١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١م، ص٣٣٣.

(٣) محمد بن الوليد بن محمد الطرطوشي الأندلسي، أبو بكر، المعروف بابن أبي رندقة، فقيه مالكي، ولد سنة ٤٥١هـ بطرطوشة من بلاد الأندلس. ارتحل إلى الحجاز والعراق والشام، ثم استقر في الاسكندرية. له عدة تصانيف منها: سراج الملوك. توفي في الاسكندرية سنة ٥٢٠هـ. انظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (مرجع سابق)، ج٤، ص٢٦٢، برقم٦٠٥.

(٤) سبقت ترجمته صفحة: ٥٣.

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (مرجع سابق)، ج١، ص١٨.

(٦) المرجع نفسه، ج١، ص٥٠.

(٧) المرجع نفسه، ج١، ص١٢٧ وما بعدها.

المدرسة، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها، أتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته، سواء طلب ذلك أو لم يطلبه، فإن عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل من الناس ويعطي كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلاء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها"[١].

رابعاً: الدور الاقتصادي:

إن مؤسسة اجتماعية تتكون من عدد كبير من العاملين على اختلاف مهامهم ووظائفهم لا بد أن يكون لها دور فعال في النشاط الاقتصادي، ويتبين ذلك من خلال الشرائح الاجتماعية التي كانت تشكل المدرسة أو تعمل لخدمتها، كالأساتذة والطلبة والنظاروالكتبة والبوابين والفراشين والصيارفة والمعماريين والطباخين والأطباء وغيرهم. ويؤكد ذلك موقع المدارس حيث كانت تتوسط الأسواق الرئيسة في المدن الإسلامية.

وتعد أوقاف المدارس محور النشاط الاقتصادي المرتبط بالمدرسة، وكان وقف بعض المدارس يتمثل بجملة من المرافق الخدمية للمدرسة. ومن ذلك وقف المدرسة الناصرية كان حمّاماً بجوارها، وفرناً تجاهها، وحوانيت بظاهرها وغير ذلك[٢]. ويحدثنا ابن جبير[٣] (ت:٦١٤هـ/١٢١٧م) عن المدرسة الصلاحية فيقول: "مدرسة لم يعمر مثلها، ولا أوسع مساحة، ولا أحفل بناء، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته"[٤]. "أضف إلى ذلك أن المدارس كانت تستخدم بشكل غير مباشر عشرات من الناس، فالطلبة والمدرسون كانوا يشكلون سوقا جاهزة للوراقين وصانعي الحبر وبائعي الأقمشة والملابس والحلاقين والخبازين وبائعي المصابيح والزيت.. الخ، كما أن بناء المبنى وصيانته كانا يحتاجان إلى مهارات الحرفيين وغيرهم من العمال"[٥].

---

(١) المرجع نفسه، ج١، ص١٢١.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٤٠٠.

(٣) سبقت ترجمته صفحة: ٥٠.

(٤) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، (مرجع سابق)، ص٢٣.

(٥) سعد الدين، محمد منير، المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، (مرجع سابق)، ص٤٩.
نقلاً عن: Ibid. p.22

خامساً: الدور العسكري:

لقد جعل المسلمون من المدارس قلاعا للعلم، وحصونا للمعرفة، ولكن الظروف السياسية الطارئة حولت بعض المدارس لتكون قلاعا حربية وحصونا دفاعية. كما تسببت بإغلاق عدد من المدارس لفترة طويلة، كالمدرسة الحسنية التي "ظلت فترة طويلة من الزمن مغلقة لا تؤدى فيها وظيفة التدريس ولا شعيرة الصلاة، وذلك لأن المماليك اتخذوا منها حصنا يدافعون به عن أنفسهم ضد أعدائهم بالقلعة"[١]. نظرا لمتانة بنائها وموقعها الإستراتيجي المهم فهي "تواجه القلعة التي تشرف على مدينة القاهرة، ويقيم فيها السلطان. ولهذا كان قواد المماليك إذا حركتهم الفتن والثورات تحصنوا بها وقادوا منها الهجوم والقتال"[٢]. وأسكنوا فيها مماليكهم وجنودهم. وقد تكرر أن نصبوا المكاحل (المدافع) أعلى المدرسة، ورموا بها على باب القلعة[٣]. وبالمقابل قام مماليك القلعة بقصف المدرسة والهجوم عليها أكثر من مرة إلى أن أخرجوا من كان فيها من أمراء المماليك وجنودهم[٤]، وهدموا السلالم الموصلة إلى سطح المدرسة والمئذنة، وسدوا بابها الكبير، وجعلوا إحدى النوافذ باباً لها[٥].

وهذه الصورة لا يمكن تعميمها إذ "لم تكن تنتهك حرمة المدارس إلا في أوقات الشغب والفتن، حيث تنتصر الشهوات على العقول، وتختلط الأمور، وتنتكس الموازين، وعندها كانت المدارس والمساجد حرمات مستباحة يرتكب فيها كل منكر[٦]. كما جرى خلال اجتياح التتار للبلاد الإسلامية.

***

(١) محمد، سعاد ماهر، مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون، (مرجع سابق)، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٧١.

(٣) انظر: ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (مرجع سابق)، ج١، ق١، ص٢٠٥. وج٣، ص٣٦٧،

(٤) انظر: ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (مرجع سابق)، ج٣، ص٣٧٠.

(٥) محمد، سعاد ماهر، مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون، (مرجع سابق)، ج٣، ص٢٨٦

(٦) قمبر، محمود، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٧٢.